في مواجهة الحرب على العراق

عارُنا في العراق:

المثقفون الأميركيّون خَذَلوا الشعبَ العراقيّ!

رومي ماهاجان

إنّ تجزيء العقل، ذلك التجزيءَ الذي يَسْمح للطبقات المثقّفة بأن تُنْتج أعمالاً بالغةَ العمق ويَسْمح لها في الوقت نفسه بالتخلّي عن أيّ إحساس بالمسؤوليّة الثقافيّة إزاء قضايا العدالة والسلام، هو بلا ريْبٍ حكايةُ هذا القرن. فلماذا، وكيف يَحْدث أنّ من يستطيعون إنتاجَ تفسيرات بارعة لنصوص غامضة ولكنّها هامّة، ويستطيعون كتابةَ مجلّدات علميّة ضخمة ومفصّلة، ويستطيعون أن يَكْشفوا أكثرَ التماثلات المحيِّرة في الرياضيّات المحضة، هؤلاء أنفسُهم يتكشّفون عن ضحالة عميقة بل وعن بلاهةٍ، ورجعيّةٍ عميقةٍ إزاء قضايا العدالة والسلام والأوضاع الإنسانيّة؟! لماذا يُبْدون مَنْ كانوا مِنَ الرِّيادة بحيث اختاروا أن يَصرفوا سحابةَ عمرهم في نُشْدان المعرفة ميولاً محافظةً جداً حيال الأمور البالغة الخطورة؟ وكيف يَحْدث أنّ هذه الفئة التي مَنحها المجتمعُ الأميركيّ إعفاءً فريدًا لكي تَفْضحَ حدودَ القوّة، وتضعَها موضعَ استجواب، تتبنّى بجلاءٍ وإطلاقٍ عقليّةَ الأقوياء وقيمَهم؟ كيف يَحْصل أنّ هذه المجموعة التي أُعطيتْ تَرَف أن يُدفَعَ لها المالُ لكي تفكّرَ تُذْهِلها القوّةُ إلى حدّ أنّها لا تفكّر إلاّ لمامًا بأمور بالغة الأهميّة، وحين تَنْخرط في إبداء رأيها تُبْديه إلى جانب نظام القوّة لا ضدَّه؟!

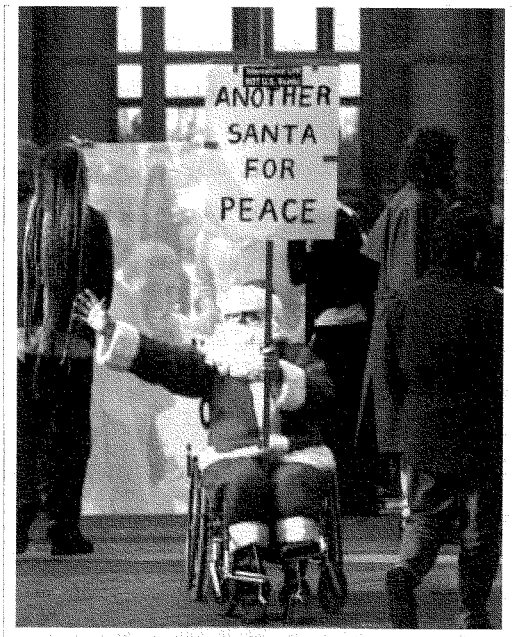

حتى بابا نويل ضدّ الحرب على العراق (أوكلاند، كاليفورنيا، ١٠ ديسمبر). فأين المثقفون؟

ثمّة بلا شكّ عدّةُ أسباب واضحة لهذه الالتقاء بين المثقفين ونظام القوّة، ومنها: تقاسُمُ المصالح الطبقيّة بين الأغنياء والمثقفين الذين يتقاضَوْن أجورًا عالية؛ والجهازُ التلقينيّ التربويّ الذي يتقاسمه الفريقان أيضًا ويستفيدان منه؛ ومأْسَسةُ الإنتاج الثقافيّ في الجامعات؛ و«استئجارُ البرج العاجيّ» (بتعبير أحد الكتّاب) من قِبل المصالح الحكوميّة والشركات. ومع أنّ هذه العوامل حين تتضافر تشكّل سرطانًا مروِّعًا، فإنّني أعتقد أنّ هناك مرضًا أعمقَ في الحياة الثقافيّة، ألا وهو الافتراق الكامل ما بين الإنتاج الثقافيّ والمسؤوليّة الثقافيّة حيال المجتمع ـ وبخاصّة في ما يتعلّق بأمور العدالة. فالمثقّفون، إجمالاً، لا يُنتجون عملَهم وفي ذهنهم مجموعةٌ من المعايير الأخلاقيّة، ولا هم يُحاكَمون على أساس علاقةِ ذلك العمل بأيّ مجموعة من المبادئ الأخلاقيّة ولا بأيّ مفهوم للمسؤوليّة. بل إنّهم، إجمالاً، لا يُبْدون مسؤوليّة تجاه «مهنتهم» ذاتها. فهُمْ، ببساطة، لا يقومون بعملهم في حدّ ذاته، ومن ثمّ لا يستحقّون أيَّ إعفاء من النقد! ومع أنّ بعض المثقفين يسعَوْن فعلاً إلى التفوُّق، إلاّ أنّه تفوُّقٌ «مُحايد،» تفوُّقٌ لا تعوِّقُه أعباءُ الأخلاق (وهنا قد يتذكّر المرءُ جماعةً شريرةً من البشر ـ وأقصد النازيِّين ـ سَعَوْا، هم أيضًا، إلى «التفوُّق» ولكنْ على حسابِ ضحايا لا يُحصَوْن، ولم تَمْلك الفئاتُ المثقفةُ من الكلام في الدفاع عنهم إلاّ قليلاً).

لذا لا غرابةَ أنّ الطبقات المثقّفة في كثير من بلدان العالم قد خَذَلت الشعبَ العراقيّ. وهذا لا يصحّ في أيّ مكانٍ صِحَّتَه في الولايات المتحدة، التي هي البلدُ المعتدِي على العراق ولكنّها أيضًا

موطنُ طبقة من المثقفين الذين لا يُشكّل انشقاقُهم عن الإجماع السائد إلاّ أخطارًا دنْيا عليهم. غير أنّ المؤسف أنّ حظوظ نجاح انشقاقهم هذا هي أيضًا قليلة لأنّ قلائلَ منهم فحسب عارضوا باكرًا بما يَكْفي، وبالحماس الذي يكفي، لوقف العدوان الأميركيّ الذي يتمّ باسمهم.

نعم، لقد خَذَلْنا الشعبَ العراقيَّ عدّة مرّات. خذلْناهم حين وقفنا جانبًا وسَمَحْنا لحكومتنا بتقديم الأسلحة والدعم لحكومتهم الطاغية. خذلْناهم حين سَخِرَ بوش الأب من أيّ مفهوم للديبلوماسيّة، فقَصَفهم في بيوتهم وحقولهم وملاجئهم. خذلْناهم حين قَصفهم كلينتون. خذلْناهم، وما زلنا نَخْذلهم، حين فَرَضْنا ومانزال نَفْرض على بلدهم عقوباتٍ شاقّةً وموهِنة. وها نحن نَخْذلهم مجدّدًا حين تستعدّ حكومةُ بوش الابن لضربهم مرّةً أخرى.

أيَنْبغي أن يستمرّ هذا؟ أيَنْبغي أن يَحطّ المثقفون من التقاليد العظيمة للخطاب الثقافيّ الثوريّ بأن يواصلوا التخلّي عن مسؤوليّاتهم الثقافيّة والأخلاقيّة؟ أيَنْبغي لهذا التجزيء اللعين لعقل المثقّف أن يستمرّ بكامل قوّته؟ أيَنْبغي أن يبقى المثقفُ غيرَ فعّال في أحسن الأحوال، وضالعًا ضلوعًا رهيبًا في الظلم في أسوإها؟

إنّ الجواب يَكْمن في دمج المسؤوليّة الأخلاقيّة والثقافيّة بالإنتاج الثقافيّ وبالنشاطات التي يَضْطلع بها المثقفون بوصفهم مُنتجي خطابات، وبوصفهم أيضًا مواطنين مسؤولين كما هو مفترض. وهذا يبدأ بممارسة مسؤوليّة طرح الأسئلة باستمرار، ومهاجمةِ الأطروحات الخرقاء التي يقدّمها الأقوياء، وتحاشي التفكير السهل عمدًا. إنّه، باختصار، يبدأ بأن يكون المثقفُ مثقفًا. ولكي يؤدّي المثقفُ «وظيفتَه» فإنّه يَجْدر به، على الأقلّ، أن يُبْدع خطابًا حقيقيّاً يَسْتجوبُ القوّةَ بدلاً من أن يَمْتثل لخُطاها.

وتُعزّز عمليّةُ استرداد الفضاء الثقافيّ هذه بفضل عمليّةٍ نشطةٍ وإيجابيّةٍ من تأطير الإنتاج الثقافيّ بالمسؤوليّة الأخلاقيّة. وتتطوّر تلك العمليّةُ أيضًا بفضل تزويج الإنتاج الثقافيّ بالنشاط السياسيّ، بحيث يُثْمِرُ في العمليّة الثقافيّة ما أُدركَ وشُكّل داخل بوتقة النشاط السياسيّ الجذريّ، وبحيث يُرْهَفُ هذا النشاطُ بدوره بفضل انكبَاب المثقف على عمله وتأمُّلاته في «كرسيّه ذي الذراعيْن.» وكلُّ ذلك يتطلّب من المثقف أن يَطّلع من القالب البروكرستيزيّ الذي صنعتْه مؤسّساتُ القوّة ووضعتْه فيه هو وفكره وأفعاله.

إنّ الحرب الوشيكة على شعب العراق تقدّم حالةَ اختبار ممتازةً لإيجاد المثقف الحقيقيّ. وهذا صحيح إنْ لم يكن لشيء إلاّ بسبب الخَرَق الهائل في الأطروحات الصادرة من واشنطن، وبسبب الكذب السافر لبوش وشلّتِه. فكلُّ مَنْ يفكّر، ناهيكَ بمن يُدْفع له المالُ لكي يُفكّر، يستطيع إنِ استخدَمَ ذرّةً من ذكائه أن يرى ما يحدث حقّاً: وهو أنّ الحكومة الأميركيّة مصمِّمة على ضرب العراق، أَامتلكت الحكومةُ العراقيّةُ أسلحةَ دمارٍ شامل أَمْ لم تمتلكْ. فأيّاً تكن الحقائق، وأيّاً كان ما سيفعله صدّام، وأيّاً كانت البراهينُ أو قلّةُ البراهين المقدَّمة، فإنّ بوش يخطّط لضرب العراق. وهذا يبيّن أنّ المنطق الذي تقدّمه الإدارة الأميركيّة إنّما هو برمّته دعايةٌ سافرة محض، لأنّ كلَّ ما يُسمَّى بالنقاش «الديموقراطيّ» ليس فارغًا فحسب بل هو محتوم أيضًا بحصيلة لا مَهْرَب منها وهي قصفُ العراق. وهذا يجب أن يجعل المثقف يرتعد؛ ذلك أنّ الأطروحةَ التي تقود إلى الاستنتاج نفسه في كلّ مرّة، وبغضّ النظر عن طبيعة الردّ، هي أطروحةٌ كاذبة من الناحية الثقافيّة. وإنّ المرء لَيَأملُ، رحمةً بالشعب العراقيّ، أن يبدأ مَنْ يَزْعمون أنّهم باحثون عن الحقيقة ويُسَمُّون أنفسَهم «مفكّرين،» بالبحث فعلاً عن الحقيقة!

إنّ الطبقات المثقفة هي، في الجملة، عارٌ. فهي لا تقاتل من أجل العدالة، وإنّما هي شلّةٌ مغرورة من الباحثين عن إبقاءِ الوضع على ما هو عليه. والمفارقة الساخرة القُصوى هي أنّ الناس العاديّين الذين تَحْتقرهم الطبقاتُ المثقفة كثيرًا ما يَرَوْن الأمورَ بطريقةٍ أوضحَ من المثقفين، ويتصرّفون على نحوٍ أعمقَ وأكثرَ أخلاقيّةً.

وهذا يقودني إلى ملاحظتي الأخيرة عن كيفيّة صيرورة المثقف إنسانًا شريفًا مفكّرًا، وهي أنّ عليه أن يتعلّم شيئًا من الثقافة الشعبيّة المحتَقَرة التي لا يُشار إليها عادةً إلاّ بوصفها مادّةً للتندّر في سهرات المثقفين. لطالما قلتُ إنّ العلوم الاجتماعيّة، كحِرْفة أكاديميّة، تتخلّف في تحليلها للمجتمع بعقدَيْن على الأقل عن الأدب (كأدب غاليانو مثلاً). وبالمثل، فإنّ الحركات الاجتماعيّة تَسْبق المثقفين بأشواط في ما يخصّ قضيّةَ الحرب القادمة على العراق. وبحسب نوم تشومسكي، وهو مثقف حقيقيّ وناشط أخلاقيّ:

«هذه المرّة هناك احتجاجاتٌ حتى **قبل** أن تبدأ الحرب. ولا أستطيع أن أتذكّر في تاريخ أوروبا بأكمله، ولا في تاريخ الولايات المتحدة، حصولَ احتجاجاتٍ بأيّ درجةٍ كبيرةٍ قبل وقوع الحرب. وأمّا الآن فأنتَ أمام احتجاج هائل حتى قَبْل بدء الحرب. وهذه تحيّة عظيمة إلى التغيُّرات التي طرأتْ على الثقافة الشعبيّة في البلدان الغربيّة خلال الأعوام الثلاثين أو الأربعين الأخيرة. إنّها لظاهرةٌ حقّاً.»

وستكون ظاهرةً أكبرَ وجديرةً بالثناء أن تَنْضمَّ الفئاتُ المثقفةُ إلى حلبة الصراع وتَعْمل على منع العدوان الأميركيّ. صحيح أنّ الحركة المناهضة للحرب في الولايات المتحدة لم تبلغْ مرحلةَ النضج بعد، غير أنّ بمقدور المثقفين ـ بل من واجبهم ـ أن يَلْعبوا دورًا هائلاً في إنضاجها. على المثقفين أن يَمْتلكوا بوصلةً أخلاقيّةً في عملهم من أجل أن يكونوا مواطنين مسؤولين في أحسن الأحوال، ومن أجل تأدية وظيفتهم على الأقلّ. ومع أنّ عليهم في عالمٍ معقولٍ أن يقودوا النضالات ضدّ الحرب ومن أجل السِّلْم والعدالة، فإنّ المطلوب منهم على الأقلّ هو أن يُسهموا في النضال على قَدَم المساواة مع بقيّة أفراد المجتمع. إنّ ضحايا ركودِنا العقليّ ورضانا الذاتيّ يحتاجون إلى أن نكون أشدَّ يقظةً بكثير.

تكساس

رومي ماهاجان

مؤلّف هنديّ علمانيّ. ناشط في الحركات المناهضة للحرب، والرافضة للعقوبات على العراق.